رأي القدس

مفاجأة فلسطينية غير متوقعة

■ فاجأ الفلسطينيون الذين ذهبوا الى صناديق الاقتراع لانتخاب مجلس تشريعي جديد العالم بأسره بانضباطهم واحساسهم بالمسؤولية، بحيث جاءت الانتخابات نظيفة من اي مشاكل، فلم يقتل او يجرح أحد، وسارت الأمور بهدوء وكأن الانتخابات تجري في سويسرا او السويد وليس في منطقة كانت حتى قبل اسبوع تعيش حالة من الفلتان الأمني، وسيطرة العصابات المسلحة.

ومثل هذا الانضباط غير المسبوق سيؤسس لعملية ديمقراطية فاعلة، تتمخض عن مؤسسات، وفصل كامل للسلطات، وحياة سياسية نشطة تقوم على اساس التعددية، واحترام ارادة الناخبين الذين هم اصحاب الشرعية والقرار.

ليس المهم ان تحصل حركة «فتح» على مقاعد اكبر من «حماس» في المجلس التشريعي الجديد، او يحدث العكس، بل المهم هو احترام الجميع لنتائج هذه الانتخابات، والتسليم بان مرحلة تصرف فصيل واحد بسلطة اتخاذ القرار قد انتهت وربما الى غير رجعة.

لا يستطيع احد ان يقول انه يمثل الشعب الفلسطيني، ويملك تفويضا بالتفاوض، وتوقيع اتفاقات نيابة عنه. فبعد ظهور نتائج هذه الانتخابات ستتكون مرجعية سياسية وتشريعية جديدة تعكس مختلف الوان الطيف السياسي الفلسطيني، وتتولى مسؤولية مراقبة اداء السلطة، وتمنح الثقة أو تحجبها عن الحكومة ووزرائها.

دخول حركة المقاومة الاسلامية «حماس» معمعة الانتخابات للمرة الأولى بعد مقاطعة الانتخابات التشريعية الأولى هو التطور الأبرز والأهم، لأن وجود نواب يمثلون الحركة في المجلس التشريعي الجديد سيثبت وجود معارضة حقيقية مسؤولة للمرة الأولى في تاريخ العملية السياسية الفلسطينية.

فالمجلس التشريعي الأول كان مجلس السلطة ونوابها، كان مجلساً دون اسنان ومخالب، وظيفته مباركة معظم خطوات السلطة ورئيسها، وكان همّ معظم اعضائه كيفية الحصول على اكبر قدر ممكن من الامتيازات المادية والمعنوية.

المأمول ان تكون هذه الصفحة الرمادية من تاريخ الشعب الفلسطيني في الداخل قد طويت، وجرى استبدالها بصفحة ناصعة البياض، لمجلس تشريعي جديد يضم نواباً يحرصون على تمثيل مصالح ناخبيهم، ويقدمون مصلحة الوطن العليا على مصلحة الافراد والاحزاب والكتل السياسية.

الفلسطينيون في الأرض المحتلة اجتازوا اختبار الديمقراطية بنجاح كبير، وانعكس ذلك في نسبة المشاركة العالية، وخوض انتخابات نزيهة حرة خالية من شوائب التزوير والعنف، وهذا نجاح يمكن ان يقدم نموذجاً طيباً للديمقراطية العربية الوطنية في مواجهة الديمقراطية الامريكية المغشوشة.

دروس كثيرة يمكن استخلاصها من كل ذلك، ابرزها ان الفلسطينيين صوتوا ضد الفساد والفاسدين، واختاروا الدماء الشابة الجديدة التي تتمسك بالثوابت الوطنية، وعلى رأسها سلاح المقاومة في مواجهة احتلال توسعي استيطاني غير مسبوق في التاريخ الحديث.

نتوقع انحسارا لكل الوجوه القديمة التي هيمنت على العمل السياسي الفلسطيني لأكثر من ثلاثين عاماً. مثلما نتوقع مرحلة جديدة من المحاسبة والرقابة، وقيام سلطة المؤسسات وليس سلطة الفساد والفهلوة والارتجال.

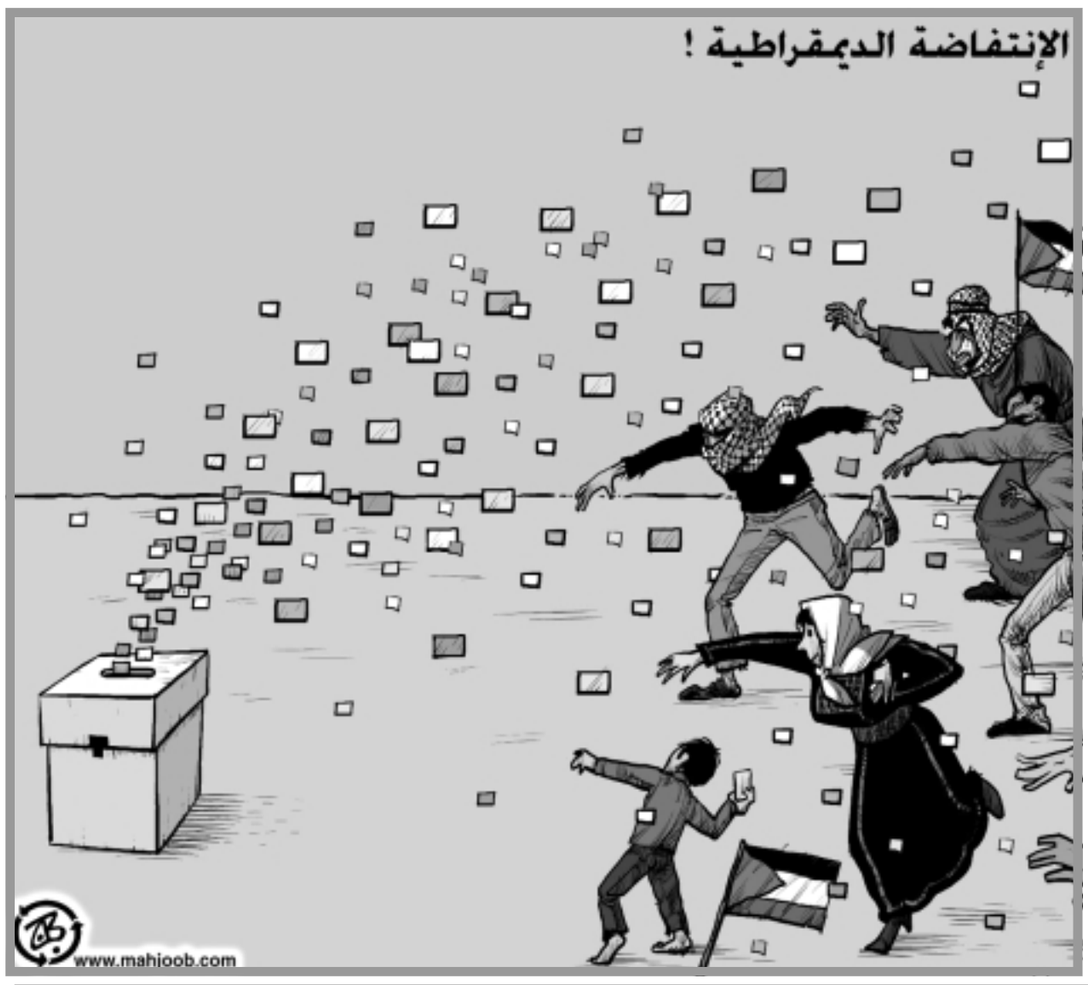

الإتحاد الأفريقي والحكومة السودانية

د. يوسف نور عوض *

■ عندما قام زعماء القارة الأفريقية التاريخيون جمال عبد الناصر وكوامي نكروما وموديبوكيتا وأحمد سيكيتوري ونايريري وهيلاسيلاسي بالتفكير في إنشاء منظمة الحدة الأفريقية كانوا ينطلقون من الفكر الذي سيطر على مرحلة الحرب الباردة وهو الفكر الايديولوجي الذي يعتقد أن بالإمكان تغيير القارة من خلال المبادئ الفلسفية التي يؤمن بها الرؤساء، وان ذلك وحده يكفي لإحداث التحول في القارة الأفريقية، وبالتالي كانت الانقلابات العسكرية مبررة إذا كانت تؤدي إلى هذا الهدف، ولكن الانقلابات العسكرية لم تحقق هدفا، وبمجرد انتهاء مرحلة الحرب الباردة اتضح أن القارة تسيطر عليها نخب تغلب مصالحها الخاصة على أي مصلحة وطنية وبالتالي ظلت القارة الأفريقية الأكثر فقرا في العالم وأن اثنتي عشرة دولة من دولها تأتي بين أكثر ثماني عشرة دولة فقرا بين الدول، وأنها تعاني من أمراض الإيدز والكوليرا والملاريا التي تقتل معظم أطفالها قبل سن الخامسة. وتقول إحصاءات البنك الدولي إن سبعين في المئة من سكان القارة الذين يبلغون تسعمئة مليون يعملون في الزراعة ويتقاضون أجرا لا يزيد عن دولار واحد في اليوم. ومع ذلك لا يفكر زعماء القارة بطريقة جديدة ويعتقدون أن شراء كل منهم طائرته الخاصة وسيطرته على مقدرات الدولة المالية ونهبها هو مبرر السعي نحو الحكم الوحيد.

وفي الوقت نفسه لا يحاول بعض حكام القارة الاستفادة من إخفاقاتهم بل يحاولون تجديد وجوههم من خلال طلاءات جديدة وكأنهم يتعاملون مع مجموعة لا تعي من أمرها شيئا، ويظهر ذلك تماما في سلوك الرئيس الليبي معمر القذافي الذي تنازل عن كل مبادئه المعلنة وقدم تنازلات غير مبررة للولايات المتحدة ثم بدأ أخيرا يبشر بولايات متحدة أفريقية يكون شمال أفريقيا العربي جزءا لا يتجزأ منها ولا يكون جزءا من الشرق الأوسط وهو لا يعبر بذلك عن يأسه من العالم العربي كما يدعي وإنما يحاول أن يقدم رسالة للولايات المتحدة فحواها أن دول الشمال الافريقي ليس لها شأن بصراعات الشرق الأوسط التي يأتي في مقدمها الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وهذا ثمن جديد يقدمه العقيد القذافي من أجل الاستمرار في الحكم ورضا الولايات المتحدة عنه وعن نظام حكمه. وليس العقيد القذافي وحده الذي يقدم التنازلات، ذلك أن الدول العربية والأفريقية مجتمعة أصبحت تقدم مثل هذه التنازلات، ويعتقد الكثيرون أن الاستمرار في تقديم التنازلات سوف يحقق الرضا الأمريكي، وذلك وهم لان العقلية الأمريكية بصفة خاصة والغربية بصفة عامة لا تعتقد أن التنازل دليل حكمة وإنما هو دليل ضعف يستوجب مزيدا من الضغط، وذلك ما أدركته المملكة العربية السعودية أخيرا التي بدأت تتجه نحو الصين والهند بعد أن تلقت علاقاتها التقليدية مع الولايات المتحدة ضربات وهزات كبيرة.

وإذا كانت المملكة العربية السعودية تملك الوسائل التي تمكنها من المناورة فإن دولة مثل السودان ليس لديها مثل هذه الإمكانات وذلك ما جعلها تتلقى صفعة كبيرة في مؤتمر القمة الأفريقية الأخيرة حيث رفض المؤتمر الذي عقدت القمة على أرضه أن يسمح لها بتولي رئاسة الإتحاد وتلك رسالة إدانة يوجهها الإتحاد الأفريقي للسودان تنبني على تقارير عامة ومتناقضة ترسلها الولايات المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان.

ولا شك أن تعامل السودان منذ البداية كان مثيرا للاستغراب، ذلك أنه قبل انعقاد القمة روجت الحكومة السودانية أخبارا بأنها استطاعت أن تضمن مساندة عدد من الدول لموقفها في الحصول على الرئاسة وكان واضحا أن ما أعلنته الحكومة السودانية مجرد حملة إعلامية خاصة عندما قالت إنها أمنت دعم رئيس جنوب إفريقيا ثابو إمبيكي، ولم يكن ذلك صحيحا لان إمبيكي كان من الرؤساء الذين وقفوا بقوة ضد رئاسة السودان، وعندما انجلى موقف الدول العربية قالت الحكومة السودانية إن هدفها يتركز فقط على إنجاح القمة، ولا يدري أحد كيف تنجح القمة التي غيبت الدول العربية فيها تغييبا كاملا ونفذت أجندة أمريكية واضحة ضد السودان الذي حاول أن يعالج الموقف بصيغة تحفظ ماء الوجه وذلك عندما ذكر أنه سيتولى رئاسة القمة في عام ألفين وسبعة على الرغم من أن كثيرا من الدبلوماسيين قالوا إن رئاسة السودان للإتحاد الأفريقي في عام ألفين وسبعة غير مضمونة لأن القضية قد تثار مرة أخرى وذلك هو الوضع الأكثر احتمالا لأن السودان الذي لم يستطع أن يؤمن القيادة عندما كانت القمة تعقد على أرضه لن يكون قادرا على تأمينها عندما تعقد في بلد آخر . وقبل أن نتحدث عن الأسباب التي جعلت القمة تنصرف عن السودان، فلابد أن نشير إلى أن ما حدث في القمة الأفريقية كان ضمن مخطط يقوم به اليمين المتطرف في الولايات المتحدة بمساندة دولة إسرائيل وهو مخطط يستهدف تفكيك لحمة الشرق الأوسط وإيجاد مناخ سياسي في المنطقة يمكن إسرائيل وحدها من السيادة على جميع دول المنطقة. ويبدو هذا المخطط واضحا في السياسات التي تتبعها الولايات المتحدة ضد إيران والعراق وأخيرا ضد سورية ومصر وهي سياسات تستهدف أمرا واحدا هو بث الرعب في قلوب الحكام من أجل تقديم التنازلات ضد مصالح شعوبهم ولصالح إسرائيل وحدها.

وإذا عدنا للموقف السوداني تأكد لنا أن السودان بقرار القمة الأفريقية الأخيرة تلقى صفعة كبيرة لأن ما اتجهت إليه القمة كان بكل تأكيد صفعة جاءت من النفوذ الأمريكي على رؤساء الدول الأفريقية في إطار الإستراتيجية التي ذكرناها سابقا والتي نفسرها على أنها موقف ضد السودان كدولة عربية وضد منظمة الوحدة الأفريقية كمنظمة تشتمل على بعض الدول العربية، ولعله من وهم العقيد القذافي في ظل هذه الظروف أن يعتقد أنه يمكن أن يكون منظرا أو قائدا في الإطار الأفريقي بعد يأسه من الواقع العربي لأن ذلك أمر لن يمكنه منه القادة الأفارقة الذين ينظر الكثير منهم إلى علاقاتهم مع الدول العربية من منظورات عنصرية، وذلك ما تأكد عندما وقفت الدول الأفريقية مع شعب دارفور ضد الحكومة السودانية.

ويجب هنا أن أؤكد انني لا ابرر سياسات الحكومة السودانية غير المقبولة دوليا ولكني فقط استهدف أن أقول إن مثل هذا الوضع له أسباب تتعلق بطبيعة النظام في السودان. وهو نظام يشارك القذافي في تقديم التنازلات كما يشاركه في عدم إقناع المواطنين بأحقيته في الاستمرار، ذلك أن النظام الذي جاء كنتيجة حركة انقلابية أصبح واضحا له أن الأيديولوجية التي انطلق منها لا تمثل مواقف الشعب السوداني السياسية بأسره كما أنها ايديولوجية غير مدروسة في إطارها التطبيقي وهي غير قابلة للتحقيق في ظروف السودان الحالية، فما الذي يبرر استمرار الحكومة في سياستها الانقلابية دون أن تبحث عن خيار آخر يحقق الوحدة الوطنية؟

الإجابة المباشرة لهذا السؤال هي أن الحاكمين لم يعودوا يهتمون بالايديولوجية أو الفكر الذي انطلقوا منه بعد أن نمت مصالحهم في داخل النظام على حساب مصالح الآخرين، وبالتالي أصبحت استماتتهم في استمرار نظام الحكم بسبب المصالح التي لا يريدون فقدانها، وهي مصالح تتحقق على حساب المجموع من أبناء الوطن، ولكن من غير الحكمة أن يعتقد القائمون على نظام الحكم أن هذا الوضع سيستمر طويلا لان الحقيقة التي أصبحت واضحة للعيان هي أن الولايات المتحدة لم تعد تفكر في السودان كشريك وإنما هي تفكر في نظام الخرطوم كنظام معاد غير أن التعامل معه في حالة الضعف يحقق لواشنطن أهدافها حيث هي فرصة لتفكيك السودان على النحو الذي تريده الولايات المتحدة، ومن المؤسف أن حكومة الجنوب التي تأسست حديثا لا تضع قلبها مع حكومة الخرطوم وإنما هي تساند حركات الانفصال في دارفور والشرق ولا اشك في أنها تقدم النصح للمسؤولين الأمريكيين في كيفية التعامل مع الحكومة السودانية.

هذا الوضع برمته يضع تحديا واضحا أمام القوى السودانية مجتمعة التي لا بد أنها أدركت الخطر وعليها الآن أن تتخذ مواقف أكثر إيجابية من اجل إعادة الأمور إلى نصابها ولا تترك البلاد تنزلق إلى هذا المنزلق الخطير، فقط من أجل إرضاء نزوات أفراد أو من أجل السيطرة على الحكم والاستفادة من كل المقدرات التي تتيحها هذه السيطرة على نظام الحكم في البلاد.

وهنا لا بد أن يكون هناك موقف وطني يحفظ للوطن حقوقه لان الواضح هو أن نظام الحكم لا يسعى إلى الحوار الحقيقي حتى في المناطق التي تتعرض إلى نزاع عسكري كما هو الوضع في دارفور وغيرها من مناطق الصراع الساخنة.

ويجب هنا أن تطرح الحكومة على نفسها سؤالا اساسيا وهو هل هناك أيديولوجية حقيقية تهدف إلى تحقيقها؟ وهل يمكن أن تتحقق هذه الايديولوجية في ظل الظروف الدولية والوطنية السائدة؟ وقبل ذلك لا بد أن تجيب الحكومة بصراحة ما إذا كانت السيطرة على نظام الحكم بالقوة الانقلابية هي مبرر مشروع للاستمرار في السيطرة على البلاد.

* كاتب من السودان

رزكار..... «هذا البطل من ذاك الزمان»!

عبدالامير الركابي *

■ الصحافيون الذين التقوا رزكار أمين في مقر اقامته في السليمانية، فاجأتهم الحدود التي كان القاضي العراقي، قادرا على رسمها بصرامة، قابلهم من دون ادعاء، واستقبلهم بتواضعه المبهر، وكان صادقا بقدر ما هو صريح، انما بالحدود التي تتيحها مهمته، بعض الصحافيين ارتبكوا، وبعضهم لم يفهموا، والبعض الآخر تعلموا «للمرة الاولى، كيف يمكن ان تفرد هنا، في هذه البلاد، ورغم كل شيء، خانة جازمة بمنتهى الليونة، للاختصاصات، والادوار. وهؤلاء لم يحبطوا، بل انتظروا اياما، كان رزكار يعد بها، بينما هو يصر اكثر من الاستقالة، على انتزاع حقه، في ان يحصر نفسه داخل عالمه، دائما، او كلما تمكن، بشق الأنفس، من طرد «السياسة» وواجه اغراءها.... وضح لهم: بان مسألة المداولات حول عودته عن قرار استقالته، وحتى عن حقيقة الاستقالة نفسها، ليست مجال بحث، لن يصرح بأي شيء بهذا الخصوص، وسوى ذلك فليسألوا ما شاءوا.

انتهى اللقاء بلا ضجيج، وبدا وكان ما يقف خلف هذا الرجل، قلم آخر يكتب، وعين خفية ترى، قد يكون ذلك «صوت التاريخ»، وقد يكون رزكار ابنه. في الأيام الاخيرة، وعلى وقع انباء الاستقالة، نشرت احدى الصحف العربية «الشرق الأوسط» للقاضي العراقي (48 عاما)، صورة رجل بأوداج منفوخة، جاهد الفنان الكاريكاتيري، حتى يفي الرجل الذي فاجأ الجميع، حقه من الحضور والمهابة، فسقط مضطرا في المبالغة الزائدة، وكل من طالع الرسم المشحون بلون اقرب الى الاحمرار الفاقع، فرك عينيه، ولم يصدق، وفي سره هتف: هذا ليس رزكار الذي نعرفه؟

رزكار الذي رأيناه طيلة جلسات المحكمة، صغير الهيئة، يوحي بالقصر والضآلة، باللهجة العراقية «ذميم»، بتشديد الياء، صوته خافت، ونظراته مبتعدة، ومحايدة، لكنها بلا قرار، هكذا كان يجب ان يكون، حتى يستحق مصيره، ويمر من خرم الابرة، ساعده على ذلك، كل الاطار المهلهل المحيط بعمله، وبمهمته كرئيس للمحكمة، واليوم اذا راجع المراقبون «تاريخ» تلك الجلسات الضحكة، المثيرة للشفقة، يستحيل عليهم ان يتجاهلوا سهو الحاكم، ويسقطوه، مما اصبح الآن بمثابة «خطة» كان القاضي يبيتها، وغدت ملامحها تتضح. السيد رزكار، الضعيف البنية، مثل ريشة، كان يخطط لمصلحة القانون، وأراد ان ينتصر على طوفان من الفوضى، والاحتلال، وتضارب الاهواء، والمخاطر التي لا تحصى.

هل الابطال من هيئة واحدة، وهل ما قد منعنا من ان نرى البطولة، تكلس مخيالنا، وفراغ ذاكرتنا الجمعية، المقفولة على لون واحد من البطولات، ان وجدت، لعل ذلك ما كان رزكار يراهن عليه، واحتمى به. فالاشياء القوية والخارقة، تمر من شارع الغفلة، وبفعل الظلام المخيم هناك، تستطيع ان تأمن الشرور الآنية، قبل ان تفاجئ الآخرين، والضعف المثير للشفقة ـ في حالة رزكار مثير للامتعاض لدى جهات معينة ـ مثل دروب التاريخ المظلمة، شرط يؤمن سلامة المرور من ذلك المسرب الذي يترك التاريخ بابه مفتوحا لعابرين قلائل، يختارهم بدقة متناهية. الآن يمر موكب منسي، حامورابي، ضد تضخم سطوة «عنترة» التي حولها الزمن الى «دون كيشوت» او طبعته العراقية «خلف بن امين» في المدينه و«معيجل» في الريف، عرف عن حامورابي مدخل شريعته العظيم والمبهر، حيث قال: (انا حامورابي (الملك الفقير للرب) اخرج على الناس السود الرؤوس) واقتص للضعيف من القوي) وهذا صوت ملك (ضعيف وعادل) ليس كصدام حسين قرين «عنترة» المهلهل في غير أوانه ولا عصره.

لا وجود للمحكمة، انها بلا نظام، ولا ترتيب محكم، الاصوات التي تصدر عنها، وصور هيئة الادعاء والشهود والمتهمين متقطعة، وتصل متأخرة، بالمقارنة حتى بحالة قديمة جدا تعود، الى ما قبل (47) عاما، اي عندما كان رزكار ما يزال رضيعا، وقتها كانت الفضائيات في عالم الغيب والاحلام، والبث التلفزيوني لا يكاد يصل سوى الى اطراف بغداد (العراق هو اول بلد عربي عرف التلفزيون عام 1952 ـ تذكروا ذلك جيدا) وبعض المدن القريبة عند دائرة لا تتعدى المئة وخمسين كيلومترا، ولم تكن محطات تقوية البث في البصرة، والالوية الشمالية قد اقيمت، لهذا كانت دائرة الارسال تضيق مع الصحو، وتمتد قليلا، حين تمتلئ سماء العراق بالغيوم، وفيما عدا بغداد، كانت الصورة والصوت يحضران لفترة، ويغيبان تحت وشوشة موترة لفترة اطول، يسارع النظارة خلالها في المقاهي والبيوت عادة، لتعويضها برفع اصوات الراديوهات، الا ان الراديو كان ينقل وقتها وقائع «محكمة الشعب» الشهيرة بالتمام والكمال، وبعض المتشفين، يسمعون قبل بدء الجلسات وهم ينادون في الطرقات (اجاهم ... اجاهم ابو العباس).. يقصدون العقيد فاضل عباس المهداوي، رئيس تلك المحكمة الشهيرة، الموكل بالقاء الشعر، والخطب الطويلة الرنانة، ولكن الذي لم يكن صوته يتقطع ولا يتوقف على مدى ساعات.

اليوم تتضافر ارتجاعات موترة وكئيبة للزمن، فوق رؤوس الحاضرين داخل القاعة الضيقة، القريبة من صورة غرفة تعذيب تبدو كأنها، حفرت تحت الانقاض، يتخيل للمرء انه قادر على ان يسمع من خلف جدرانها، اصوات طلقات نارية أو مدفعية تمشط المحيط، واي شخص لا يعرف بدقة ما يجري في العراق، ويرى مشاهدها، لا يمكن الا ان يتصور، بانها تجري في ساحة حرب، او في بلاد عادت الى عصور ما قبل الصناعه: (هذا الخبر قديم لكنه حاضر الآن)، ولا أحد شاهد جلسات ما يسمى بـ«محكمة العصر»، الا ورأى الزمن مضغوطا ومتعاكسا، برثاثة، لم تخلق بعد، الكلمات القادرة على وصفها، فتركت معلقة في الاحاسيس، الزمن نفسه هنا فوضى، بلا اتجاهات.. يتضارب فيه الماضي والحاضر، ولا يتعايشان، بل يقتتلان، تاركين اشلاء التاريخ تتطاير في الارجاء.

ورزكار يقدر الاحداث بتطامن، راضيا بان يكون جزءا منها، هم يريدون محاكمة، وهو يقبل، الكثيرون سوف يضعونه في الخانة المفترضة في مثل هذه الاحوال، وقد فعلوا للوهلة الاولى باصرار ويقين لا يتزحزح، قالوا: «متعاون مع المحتلين وحكومة المتعاونين «ماذا يبقى» رجل بلا حول ولا قوة جاء اصلا ليزور العدالة ويخدم الاحتلال» كل الدلائل تؤيد ذلك حتى شكل الرجل وهيئته، احد السياسيين قال لاصدقائه: «صدام في حالته تلك، أكثر هيبة من كل اعضاء هيئة المحكمة»، وبالأخص رئيسها المسكين. عدة صحف عربية قالت «صدام يستغل قوة حضوره جيدا»، وكلهم قصدوا القول، ان منظر القاضي لا يدل على قوة شخصية. رزكار كان يتواطا ضد نفسه، وبما انه، هو القاضي، فلقد كان يعلم بان كل من يقفون وراء المحكمة، الاحتلال، والحكومة، والشهود، والمتهمون، وهيئة الدفاع التافهة، في طرف، وهو في طرف آخر: اذن المحكمة في نهاية المطاف ستنتصر، والبطولة ليست لها مقاييس جسدية.

الامريكيون يريدون محاكمة بتلك الشروط، رزكار يقبل، ناويا التنصل في اللحظة المناسبة، من تبعات أمر لا يد له فيه، صدام ومن معه يريدون استغلال المحكمة للخطابة، هو لا يمانع، حول الرئيس العراقي السابق الى «فاضل عباس المهداوي»، وأظهره، هو ومن معه احيانا، كمهرجين مفصولين عن الارض والسماء معا، سمع صوت صدام شبه الباكي، وهو يهتف باسم «الأمة العربية» التي لم يساهم أحد قبله، كما ساهم هو، في هزيمتها، وتدمير احلامها. مشهد مثير ومحير لمرددي شعارات، يتعاملون مع جرائمهم ببراءة كالاطفال، افرحهم وهم رزكار، الذي رماه داخل قفص الاتهام، فانكشفت فاضحة حدود وعيهم، واختلال بنيتهم النفسية، وظنوا انهم سيمسحون الدماء عن اكفهم، بخليط الصلافة، والتودد، احدهم هو «برزان التكريتي» قال لرئيس المحكمة: «انت كما هو واضح، تريد ان تسجل في التاريخ بانك حاكمت صدام حسين، وسعيت الى توفير العدالة»، هذا اعتراف، يضع الحاكم بصف الصداقة مع المتهمين، وهو يستوجب من موقع آخر خروج مظاهرات محتجة، تندد بأسلوب التساهل مع «المجرمين والقتلة».

وقتها كانت المحكمة تنشطر، انتبه الجميع بلا صوت عال الى وجود «القاضي»، ونسوا الانحدارات التي منها ترتفع راية «القانون» في بلاد الرافدين، فمجتمع اللجاجة، والاعتقاد الصخري الشكاك، لدى كل طرف، وكثرة اسباب التصادم، التي لا تنتهي ولا تهدأ، افردت على مر التاريخ، وبالاخص في القدم، مكانا لقوة عليا، توجدها، على حسب نظريات علم الاجتماع، «التسوية الضرورية لبقاء المجتمعات واستمرارها «هنا يصبح الكل ضعفاء، بينما يصبح المخالف «الاعزل الحكيم الهادئ» والضعيف، محل التقاء، الكل ينتهون اليه ويحتاجونه، ومن «برج بابل» يخرج «حامورابي» وهو ويا للتناقض الصارخ، الطرف الوحيد الذي لا يعرف حمل السلاح: هكذا عرف العراق أربع منظومات قوانين «شرائع»، آخرها تلك المسجلة باسم حامورابي، والتي ما تزال مقدمتها هي الارقى في مقدمات الدساتير في العالم، حتى بالمقارنة بالدساتير الاوروبية الحديثة. دعونا بالمناسبة نذكر، ان تلك البراعة الاستثنائية في القانون، وصلت اثينا القديمة، كانت «كلية بيروت»، التي اكتشفت اثارها مع اعادة بناء الوسط التجاري المهدم بسبب الحرب، تدرس القانون بكتب ونظريات منه رزكار، واساتذة فينيقيين، وطلبه يونان، الان أيضا، ثمة شق ينسل «بابل»، وحكمتها الكونية، ومأساتها المتكررة، المدوية في كل مرة، في الآفاق، وعلى امتداد الكوكب.... في اللحظة المناسبه قال رزكار الضعيف: انا سأستقيل.

وهذه المرة ضرب القاضي العراقي رأسه برأس رئيس الوزراء، تلميحا، ومن دون صراخ كان رزكار (مع حفظ الالقاب) يركب مجازفا قاربا آخر. خرج من المحكمة الى بيته في السليمانية، تاركا هذا الشيء المهلهل معلقا برقبة اصحابه: الامريكيين، والحكومة، وبعض الخطباء من قادة القوى النافذة (بمقدمهم مقتدى الصدر)، وصدام وصحبه، وهيئة دفاعه التي لاحاجة لها، اي كل الضعفاء العاجزين عن عقد محاكمة، لا يرأسها رزكار. من يا ترى سينتصر؟ «برج بابل» المنهار، المهلهل، بشخوصه وقاعاته وشوارعه المغبرة الحزينة..؟ ام الحكمة التي تخترق التاريخ والازمان؟ تريدونني ان اقول «رزكار» نعم، لن اخالفكم لو تقولون ذلك، فقط اسمحوا لي ان اغير الاسم لا المعنى.. لأقول.... العراق.

* كاتب وباحث عراقي مقيم في باريس

زفاف مدن ما بعد الحداثة الخليجية

د. علي محمد فخرو

■ في أي حقول تصرف فوائض عائدات البترول المالية الحالية؟ قسم ضخم منها يبدد على بناء ما يعرف بمدن ما بعد الحداثة. وهذا يستوجب الشرح والتوضيح. فعبر القرون الثلاثة الماضية ارتبط تخطيط المدن بالنظام الاقتصادي. فمدن مرحلة الرأسمالية الأولى التي كانت تحكمها البضاعة المنتجة والمصنعة تختلف عن مدن مرحلة الرأسمالية الثانية المروجة للاستهلاك النهم للبضاعة والتي بدورها تختلف عن مدن مرحلة الرأسمالية الثالثة الحالية التي بدأت منذ سقوط جدار برلين والموصوفة برأسمالية الخيال والوهم (Fiction Capitalism) التي تركز على الفرد نفسه لتسيطر على أحاسيسه ونفسيته وعقله من خلال خلق حالة واقع ثان خيالي وطفولي لا يمت بصلة لواقع الحياة الحقيقي ولكنه يقدم كبديل أفضل وأحسن وأرقى.

مجتمعات الخليج، رسميه وخاصة، رفضت وعجزت عن الاندماج في رأسمالية منتجة صناعية ذاتية فقفزت كعادتها إلى آخر الصيحات الرأسمالية فتبنت أولاً رأسمالية الاستهلاك النَّهم بصورة أقوى حتى من قلب تلك الرأسمالية في أمريكا وأوروبا، وكمية القمامة التي يلقيها الفرد الخليجي يومياً، والتي هي الأعلى في العالم، تشهد على هذا التميُّز والسَّبق الخليجي في ممارسة تلك الرأسمالية الاستهلاكية وحرق كل مدَّخرات حكوماته وأفراده في مظاهرها ومفاخراتها.

وها أن الخليج المقلد ابداً، اللاهث وراء كل صرعة مادية حَسيَّة، يحاول أن يبزّ مرة أخرى مجتمعات الدنيا في تبنِّيه وممارسته لما تطرحه الرأسمالية الجديدة. ولعلَّ أفضل مثل على هذا التبني المدهش المفجع هو التسابق في بناء أعداد هائلة من المجُمعات السكنية التجارية باهظة التكلفة وبالغة الإفراط في كل وسائل الترف. وهي كلها، وما يقام من بنية تحتيَّة من أجلها، ستزفُّ المدينة الخليجية الى عرس مدينة ما بعد الحداثة.

أول ما يميز تلك المدن هي تلك المجمُعات السكنية التي لن تكون لها أية علاقة بالمدينة التي تحيط بها، لا بتاريخها ولا بسكانها أو بمشاكلها اليومية. فهي مجمعات ستسكنها جماعات متماثلة في الثروة وفي الذوق وفي الثقافة.

فإذا كنت تستطيع أن تشتري بيتاً أو شقَّة بمليون دولار أو أكثر فانك تستطيع الإنتماء الى المجمع وإلاَّ فاسكن في مكان ما في أرجاء المدينة خارج أسوار المجمع. والمجمع سيغنيك عن الحاجة للمدينة: فهو سيضمّ وسائل للتسوق وللأكل ولممارسة الرياضة وللتنزُّه الهادئ في حدائق غنَّاء ولتعليم الأولاد ولأماكن عمل إن شئت. وهو سيكون محروساً من قبل حُراس خاصين لا دخل لهم بشرطة المدينة ومن قبلُ أحدث الكاميرات التي ستتابع كل حركة في المجُمع. وخلافاً للأحياء البشرية المعتادة لن يستطيع أحد دخول تلك المجمُعات إلاَّ إذا كان يحمل بطاقة خاصة ممغنطة. وسيحكم المجمعات نظام يتعلق بحركة السيارات وبالضوضاء وبأماكن لعب الأطفال بحيث أن إزعاجات المدينة ستنتهي ومناظر الفقراء والمتسولين المثيرة للإشمئزاز ستختفي.

وإذا كان التماثل اليوم هو في الثروة فان بالإمكان أن يصبح في الغد تماثلاً في أمور أخرى: مجمعات لجنسيات مُحددة، لأناس متقاربين في العمر، لعزاب، لمتقاعدين، لمثليين في العادات الجنسية، لعاملين في حقل تخصصي واحد الخ. من فذلكات عبثية.

وما دام الخليج يفتح ذراعيه مرحباً بالعولمة وبكل متطلباتها فان تلك المجمُعات ستكون في الأساس، لا لأبناء المدينة، وإنما لجحافل السياحة والقادمين من وراء البحار الَّذين ينشدون المتعة والابتعاد عن آلام واقع الحياة ومصائبها.

لكن مدن ما بعد الحداثة الخليجية لن تقف عند الهوس بوضع ثروات هائلة في مجمعات الأحلام والخيالات الجامحة، فبعضها سيشبه السكن في مدينة فينيسيا الإيطالية أو مدينة لوس فيجاس الصحراوية الامريكية أو باريس الفرنسية، وإنما سينتقل الحال إلى كل ما تبقى من مساحات مدن الخليج لإدخالها في متطلبات رأسماليتي الإستهلاك والوهم وهو ما سنفصله في مقال قادم. أما رأسمالية الإنتاج والصناعة والتكنولوجيا والزراعة والأبحاث المتطورة والبشر المنتجين الجديين فإنها ستترك للآخرين. بعبقرية الهلوسة هذه نعدُ لحقبة ما بعد البترول.

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف: 5337920 فاكس: 5337928 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) Fax: 0208-741 8902 / 748 7637
email: alquds@alquds.co.uk * Internet: www.alquds.co.uk
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel: (9626) 5337920 Fax: 5337928
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364